

الاتجاهات الفنية في شعر محمد بن عمار الأندلسي

م. عادل شاهين خو، كلية التربية، قسم اللغة العربية، جامعة دهوك، عقرة، كردستان العراق

ملخص البحث

تعد الاتجاهات الشعرية من الموضوعات المهمة في بيان مدى تمكن الشاعر من ناصية الشعر، وقدرته البصرية في سبر أغوار الموضوع، وثقافته المتنوعة من حيث إحاطته بهذه الاتجاهات، لذا رأينا من الأهمية أن نستنبط ونحيط بمدى قدرة شاعرنا محمد بن عمار الأندلسي بهذه الاتجاهات؛ لأنه ليس من السهل والبساطة أن يتمكن كل شاعر بهذه الإحاطة الشاملة، ولقد اعتمدنا في دراستنا على منهج فني من حيث استنباط النصوص الشعرية من خلال أصول وقواعد فنية، وهي الأساسيات التي يعتمد عليها الباحث في هذه الدراسة، ممثلة بالاتجاهات الثلاثة وهي: الاتجاه القديم الكلاسيكي، والاتجاه المحدث الجديد، والاتجاه المحافظ الجديد.

المقدمة

المتنبع لشعر محمد بن عمار الأندلسي (422هـ/1031م-471هـ/1086م)، والذي عاش في فترة العباديين (433هـ-1041م-431هـ-1068م)، يرى أن شعره كان يسير في ثلاثة اتجاهات فنية والتي ستكون محاور هذا البحث ومادته، وهذه الاتجاهات هي: الاتجاه القديم (المحافظ)، الذي يسير فيه الشاعر على طريقة الشعراء العرب القدماء من حيث الأسلوب؛ بوصفه المرجعية التراثية التي يستمد منها الشاعر ثقافته الأدبية، لذا نجد أن الشاعر يترسم خطى الشعراء العرب الأوائل، ويكتب على طريقتهم؛ ليرهن أنه أصيل الفكر، والتقليد، والمحاكاة، وإن كان الشاعر وسط هذا التقليد يعبر عن البيئة المحيطة به، والواقع الذي يراه، إلا أنه يحاول أن يجاري القدامى ويسلك مسلكهم، وهذا هو ديدن كل شاعر عاش بعيداً عن المشرق، وحنّ إلى تراثه، وأراد أن يبرهن أنه أصيل الفكر والاقتداء، والاقتدار.

أما الاتجاه الثاني فهو ما يعرف بالاتجاه الجديد (المحدث)، الذي ظهر في المشرق مع بداية العصر العباسي وتزعمه شعراء التجديد مثل: أبي نواس، ومسلم بن وليد، وأبي العتاهية، الذين حاربوا القديم وثاروا عليه، ودعوا إلى كتابة القصيدة بأسلوب جديد وهذا الاتجاه له أسباب أدت إلى ظهور هذا النوع، منها تقليدية بحثة تتمثل بتقليد ومحاكاة كل ما يأتي من الشرق، ومنها الواقع الجديد للأندلس وطبيعتها، والتي تمثل بالعديد من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي امتازت به البيئة الأندلسية مما جعلها بيئة خصبة للتجديد بجميع أنواعه.

أما الاتجاه (المحافظ الجديد)، والذي جاء كردة فعل على الاتجاه الجديد (المحدث) الذي اتسم بالمجون، والإسراف، والميوعة، والتفلسف، فظهر هذا الاتجاه بقوة على المسرح الشعري، ليردّ على الاتجاه المحدث الذي استطال على بعض القيم، والمفاهيم، والسلوكيات، ويبدأ من ثورته العارمة الموهلة، وأيضاً كرد فعل على الإسراف، وحفاظاً على المبادئ والعادات المعروفة.

المبحث الأول: الاتجاه القديم (المحافظ)

وفي هذا الاتجاه يسلك الشاعر مسلك الشعراء العرب القدماء - أي شعراء عصر ما قبل الإسلام - في كتابة قصيدته، فهو يستند على القديم، ويؤول إليه، ويترسمه، ويتأثر به، ويتخذ مثلاً، ومصدراً في بناء القصيدة الفني، وتشكيل صورها الشعرية، وطريقة طرح موضوعاتها، واختيار ألفاظها ومعانيها (1). لذلك سنرى أن هذا الاتجاه المتمثل في الشعر الأندلسي كان يهتم أكثر ما يهتم بالموضوعات التقليدية الكلاسيكية، من: فخر، ومدح، وحماسة، وغزل.... ثم اتجه يسير على طريقة الأقدمين في بناء القصيدة، وفي تجميع صورها غالباً، من عالم البادية، وتأليف أسلوبها في الأم، من لغة تستوحي الذاكرة، والتراث، أكثر مما تستوحى من العصر والواقع (2). ولعل من أهم الأسباب تمسك الأندلسيين بهذا الاتجاه هو اعتبار المشرق رمزاً ومنارة لهم يحتذون بهم. أو كما يقول ليفي بروفنسال: فالإسبانية البعيدة لم تتجه قط لأول الأمر إلى الانفراد بدور خاص ومتفرد بها في الشعر، ذلك أن من خصائص الحضارة الأندلسية التي لازمتها وعرفتها إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، أن تمسك تمسكاً شديداً بالتقاليد والعادات الشامية، ومن الطبيعي ألا ندهش إذ نرى في أرض الأندلس في أول الأمر استقرارية من عاداتها القديمة، حتى عصبيتها القبلية، فترى الشعر فيها صورة دقيقة من الفن الشعري العربي في القرنين الأولين (3).

هذا وقد درس الدكتور (أحمد هيكل) أسباب تمسك الأندلسيين وتشبثهم بهذا الاتجاه الفني في كتابة الشعر فوجده يعود إلى أسباب وعوامل تتعلق بطبيعة حالهم وواقع ظروفهم، إذ يقول: ((أما واقعهم وظروفهم فقد كانت تتطلب إلى حد كبير هذه الموضوعات التقليدية التي عرف بها الشعر المحافظ، فالفخر والحماسة من لوازم الصراع والغلبة، وقد عرفت الأندلس كثيراً من ذلك في تلك الفترة وفي غيرها من الفترات. والمدح كذلك من لوازم البيئة العربية القديمة، وقد كانت البيئة الأندلسية تنطبع - إلى

حدّ كبير - بالطابع العربي . وخاصة حين كان حكامها يدعمون حكمهم ويقوون سلطانهم ، فهم يتخذون من أداة ترويح ووسيلة دعاية ، وهم قبل ذلك عرب الأمزجة ، يهشون للمدح وينسبون للشناء)).(4)

ومما يتدل على مدى تمتك الأندلسيين بالاتجاه المحافظ القديم قول ابن بشام: ((إنّ اهل الأفق أبوا إلّا متابع أهل الشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع قتادة ، حتى لو أنق تلك الأفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا ضمّاً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً ، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائدة مرمى القصبة ، ومناخ لا يعمر بها جمال ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد)).(5)

أما الأسلوب المحافظ الذي تناول به الشعراء الأندلسيون تلك الموضوعات التقليدية ، فله تبريره من تمسك الأندلسيين بقيمهم ؛ وذلك أنّ العرب كانوا ينتقلون إلى أيّ إقليم جديد ، وفي مخيلاتهم عالم مثالي ، هو ذلك العالم الذي عاشه آباؤهم الأقدمون ، حيث الصحراء والنوق ، والبان والكثبان ، والجاذر والآرام ، إلى آخر هذه الخطوط والألوان التي تؤلف لوحة البادية ، عالم العرب المثالي الأسطوري ، وكان أبناء العرب يعتقدون أنّ خير أدب هو ما كتب آباؤهم في ذلك المثالي الأسطوري ، وأنّ قصارى الأديب بعد ذلك أن يأتي بما يشبه نتاج هؤلاء الرواد الأوائل ، ومن هنا كانوا في الأندلس يستلهمون هذا العالم المثالي الذي هو عالم آباؤهم وأجدادهم ، كما كانوا يحاكون هذه النماذج التي جادت بها قرائح الآباء والأجداد .(6)

ولو رجعنا إلى شعر محمد بن عمار الأندلسي ، سنجد بروز جوانب واضحة وقوية من هذا الاتجاه القديم ، وذلك من خلال ألفاظ وسيافات كلامية تدل على ذلك ، منها : (الفلاة ، البید ، العيس ، النجى ، الطلول ، المها ، الحادي ، الأخوان ، وحديث السقيا و...). وغيرها من الألفاظ التي تدل على الموروث القديم ، وأكثر ما نجد هذا الاتجاه - كما أشرنا سابقاً - في المدح ، والغزل العفيف ، والاستعطاف والشكوى ، كقول ابن عمار في قصيدة له يستعطف ، ويشكو ، ويمدح المعتمد بن عباد ، فيقول:

منّ العباسات الدّهم إلّا التفاتة إلى غزّة أهدت له تُغرٍ باسم
طوى بي عرض البید فوق قوائم توهمني منهنّ فوق قوادم(7)

ويقول في القصيدة ذاتها :

صعاليك هاموا بالفلا فتدروا جلود الأفاعي تحثّ بض النعائم
ندامي ولا غير السيوف أزاهري لديهم ولا غير الغمود كئامي
وما حال من ربه أرض أعارب وألقث به الأقدار بين الأعاجم(8)

كما يذكر في مقطع آخر من هذه القصيدة (العيس) بوصفها الوسيلة التي يرحل عليها الشاعر قاصداً ممدوحه ، فيقول:

يقولون لي دغ أيدي العيس إنّا تؤدي إلى أيدي الملوك الخضارم
فديهم لم يبعثوا حرص حاجز ولا تبهوا إذ تبهوا طرف نائم(9)

وهكذا نجد أنّ الشاعر ابن عمار الأندلسي كان يسير على طريقة الشعراء الجاهليين في كتابة القصيدة ، ويظهر ذلك جلياً في لغته الشعرية ومعجم ألفاظ القصيدة ، كلفظة (الصعاليك ، الفلا ، النعائم ، العباسات ، الدّهم ، البید ، العيس)، وكلها ألفاظ بدوية المعنى ؛ لذلك تراهم يصفون الفلاة ، والناقة ، والجواد ، والعيس ، جرياً على الطريقة والأسلوب القديم ، وجثوا على بادية الأعراب وأداتها ، ولكنهم لم يستفيضوا كثيراً في وصفهم بل اقتصدوا كلّ الاقتصاد.(10)

ومن الألفاظ البدوية الأخرى التي استعملها الشاعر مما يدلّ على اقتفائه أسلوب المشارقة وطريقتهم ، لفظة (الطلول) جمع (طلل) ، ومن ذلك قوله في مدح (المعتمد بن عباد) :

لله دزك ما تعلق ناظري بمدى علاك ولا جرى تحصيل
وجه بمعرفة الدلايص مقنع أبداً وطرف بالعجاج كحيل
ويدّ بآمال العفاة... أبداً وآجال العداة تميل
عمرت ربوع المجد منها إنّا تركت بيوت المال وهي طلول(11)

ولم يقتصر تأثر الشاعر محمد بن عمار الأندلسي بأسلوب الشعراء العرب القدامى على غرض المدح فحسب ، بل يظهر ذلك واضحاً وجلياً في غزله أيضاً ، إذ نجد أنّ ((للشاعر لغة في الغزل يستمد مادتها من غرر الأدب القديم جزالة اللفظ ومنانة بناء غير أنّها لا تقف عند هذا)).(12)

ومن ذلك قوله متغزلاً بامرأة حسناء:

فعين كما عين المهى ومقلد كما ارتاع ضني بالفلاة غريب
وردف كما أنهال القضب وضمه وشاح كما غنى الحمام طروب(13)

ومن ألفاظ البادية -أيضاً- التي أكثر من ذكرها شعراء الجاهلية ، واستعملها ابن عمار في شعره الغزلي (زهرة الأخوان) ، ومن ذلك قوله في القصيدة ذاتها :

وثر (كمثل) الأخوان يشوبه لى حسنات الصبر عنه ذنوب(14)

ومن ذلك أيضاً ذكر الرحلة والحادي ، الذي تكرر كثيراً في أشعار الجاهليين والإسلاميين ، وقد اخذ الشاعر ابن عمار الأندلسي منهم وضمه في شعره كما في قصيدته الدالية التي يعتذر فيها إلى أبي عيسى بن ليون ، وفيها يقول :

وهل أكتوت بهوك الألفية أحلى بعيني من لذيذ رقادي
أخطرتا و...بعد إلى التي يدعو المطي لها ويشدو الحادي
لا بد من ذاك السفار وإن عدت عنه الليالي إتهن عـــــــواد (15)

أما الدعاء بلفظ (استقيا) فقديم أيضاً ، وأسلوب مشرق في الأصل ، كما يقول د. إبراهيم السامرائي: ((وحدث السقيا قديم في أدبنا العربي القديم ، وطبيعي أن الشاعر يدعو بالسقي في بيئة أشد ما تكون افتقاراً للماء والكلأ)) (16). كقول النابغة:

نبئت نعا على الهجران عاتية سقياً ورعياً لذك العاتب الزاري (17)

وإن اختلف المعنى في هذا الدعاء إلا أن ابن عمار يستعمله محاكاة لشعراء العرب المشرقين ، كقوله يعتذر من المعتمد:

سأستمتع الرحي لديك ضراعة وأسأل سقياً من تجاوزك العذب
وإن فحتني من سناك حرجف سأهتف يا برد النسيم على قلبي (18)

كما نجد ظاهرة الدعاء للممدوح في خاتمة القصيدة موجودة وبارزة لابن عمار في قصائده ، وهي تقليد فتي من تقاليد القيدة الجاهلية ، كقوله في قصيدته التي يمدح بها المعتمد بن عباد ويستعطفه بها:

وإن غالي من دونهن منيتي فأقدار ربّ بالمنية حاكم
توالى عليك السعد الزم صاحب وكان لك الرحمن أكلاً عاصم (19)

وهكذا ترى أن الشاعر الأندلسي إذ ينحو منحى بدوياً يتجاوز بذلك واقعه المعاش إلى واقع وبيئة وتجارب وفكرة عاشها من سبقوه ، ووسيلته وطريقته في ذلك تراثه ، لا تجربته الحية ، المتمسكة بموقفه من هذه الحياة ورؤيته لها (20). فابن عمار بهذه الأبيات وغيرها كان يسلك مسلك القديم أو يحاول أن يحتذي حذوهم ؛ حاله كحال بقية أقرانه الذين ساروا على درب ؛ ليبرهن للناس أنه يمتلك زمام التقليد والقدرة والإبداع ، على ترسم خطأ أسلافه من الشعراء المشرقين سواء كانوا من الجاهليين ، من الجاهليين أو شعراء العصر الإسلامي .

المبحث الثاني: الاتجاه المحدث (الجديد)

ولقد ظهر هذا الاتجاه وبرز في المشرق وسار على عليه أبو نواس ، ومسلم بن وليد ، وأبو العتاهية ، وغيرهم من شعراء التجديد ، وكان زعيمهم أبي نواس ، حيث أنه ثار على الاتجاه الكلاسيكي القديم وندد بطريقته ، وذهب بطرق أغراض جديدة ، بمنهج جديد وأسلوب محدث ، ولما كانت الأندلس مستقرة الصلة بالمشرق ، دائمة الاخذ عنه ، فقد تأثرت بهذا الاتجاه الفتي الجديد في الشعر ، والذي نقل إليها في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وما لبث أن شاع بين أدباء الأندلس في تلك الفترة (21).

ولقد كان من أسباب نمو وتطور وتوسع أغراضه ومبادئه ، البيئة الاجتماعية والسياسية في إشبيلية بشكل عام ، فبيئة إشبيلية الطبيعية تنعم بسحر مناظرها وجمال رياضها ، وتكتسي بخضرة دائمة ، وبساتين وارقة ، وأنهار جارية ، وحياتها الاجتماعية في هذه الفترة من تاريخها انعكست من كثير من القيود والأغلال التي قيدتها وطوقتها زمناً ، وشلت انطلاقها وحركتها ، فتحرر الفرد الإشبيلي من كثير من التقاليد الموروثة ، طارحاً التزمّت جانباً ، مقبلاً على الحياة بروح وإحساس مادي متلهف ، إلى كلّ لذة ولهو وعبث ، فشاع بينهم المجون ، وشرب الخمر ، والتغزل الشاذ ، والانغماس في حمأة اللذات الدنيوية ، تغريمهم بذلك وتشجعهم عليه بيئتهم الطبيعية الساحرة الخلافة . أما حال حياتها السياسية ، فهي أيضاً سبب آخر يضاف إلى ما سبق من أسباب نمو هذا الاتجاه وتطوره ، فقد كان الصراع السياسي في سبيل الاستقلال أولاً ، ثم محاولة التوسع وبسط النفوذ على دويلات صغيرة أخرى مجاورة ثانياً ، وموقف الملوك العباديين الثلاثة الذين تولّوا أمور إشبيلية وغيرها من المدن التابعة لها من حياة مترفة متحررة ثالثاً (22).

أما متطلبات ودواعي وحاجات هذا الاتجاه فهي نفسها في المشرق ؛ لأن الأندلسيين كانوا يفتحون عيونهم على واقع حياة جديدة ناعمة ومترفة ، ومنها التحرر في ظلال بعض الامراء المتحررين ، ووفرة مجالس الغناء والموسيقى ، بجهود ما جاء به زرياب من ألحان وآلات وقيان ، وكثرة مجالس اللهو والشراب بسبب ما أتيح لهم من إنتاج الكروم وعصرها والترخص في شربها . وكذلك العلاقات الشاذة في الحب ؛ بسبب ما كثر بينهم من غلمان الصقالبة وغير الصقالبة ، وما شاب هذه العلاقات من التحرر والانفتاح ، وكسر جميع العادات والأعراف الدينية والاجتماعية (23). كما لا لنا ينبغي لنا أن نتغافل أو ننسى ما كان لطبقة المؤيدين من مجهود كبير في تعريف الأندلسيين على نماذج من شعر المحدثين بها (24).

أما الأغراض والموضوعات التي تناولها الاتجاه المحدث فلم تكن متداولة ومطروقة عند الأندلسيين سابقاً ، كالخمريات ، والمجونيات ، والغزل الشاذ ، والزهديات ، ووصف الطبيعة (25).

أما الأسلوب المتبع في هذا الاتجاه فقد كان يتسم بالسلاسة والسهولة مع الميل إلى التفصيل ، وهو في ذلك يستوحي فكرته ومضمونه من أجواء حضرية ، وآفاق غير آفاق البادية والصحراء⁽²⁶⁾. وأما ألفاظ الاتجاه التجديدي التي تقيد معانيه ، فنجد أنها ألفاظ رشيقة سهلة ، تنتظمها موسيقى خفيفة مرهفة تميل إلى الانسياب والرفقة والعدوبة باعتداده على البحور القصيرة أو المجزوءة .⁽²⁷⁾

وكذلك الأمر بالنسبة للأخيلة وصوره الشعرية ، فهي مستوحاة من البيئة الحضرية وتستلهم عناصرها من أجواء المدينة العصرية المتحضرة ، فتنتمي ما لأن منها ورق ، وما حمل وخف⁽²⁸⁾. وهذا ما كان واضحاً في شعر محمد بن عمار الأندلسي ، منها قوله يصف طبقاً من الفضة مذهب الباطن:

وساء من الغنى قد أسألت ذهباً في قرارة من لجين
فاجتنت حولها العيون بلطف زهر الحسن من بنان اليدين⁽²⁹⁾
وقوله يصف الخمر:

الكأس جامد ماء والخمر ذائب نار
وأعجب الماء نار تلاقيا في قرار⁽³⁰⁾

فصور هذا الاتجاه وأخيلته تستوحي وتوضح البيئة الحضرية المتعددة ، وتستلهم أجواءها العصرية المتطورة⁽³¹⁾. وهكذا نرى فنون البديع في بعض هذه المقطعات مثل المطابقة بين (جامد وذائب) ، وبين (ماء ونار) ، ثم نرى الموازنة بين الكلمات في الشطر الأول بحيث نلاحظ كل كلمة تقابل الأخرى في الحركات والحروف ، فكلمة (الكأس) تساويها (الخمر) ، وهكذا (جامد وذائب) و (ماء ونار) .

ومن النصوص الشعرية التي تمثل هذا الاتجاه عند ابن عمار الأندلسي ، قصيدته في التغزل بغلام ، وفيها يقول :

تعلقته جمهوري النجا ر حلو اللى جوهرى الثنايا
من النفر البيض جر الزما ن رفاق الحواشي كرام السجيا
ولا غرو أن تغرب الشارقا ت وتبقى محاسنها بالعشايا
ولا وصل إلا جان الحديد ث نساقطه من ظهور المطايا
شئت المثلث الزعفران ن وملت إلى خضرة في النقايا⁽³²⁾

فأنت ترى روح الدعابة والمرح والتفنن في الغزل بالمذكر ، وتلاحظ جناساً ناقصاً بين (جمهوري وجوهرى) ، وموازنة بين (رفاق الحواشي ، وكريم السجيا) ، وجاليات في الكنايات والتعبيرات المجازية مثل (من النفر البيض) ، و(جان الحديث) وغيرها من الألفاظ الرقيقة الجميلة . كما نجد هذا الأسلوب وهذه اللغة في هجاء الشاعر وسخريته ، ومن ذلك قوله في هجاء شاب يدعى مسلماً :

روائح مسلم قدرة وأقصى دبره دسرة
وأدخل فيه إصبعة وقاس بنانه العشرة
فلم يكن وصول الدهر ن دون تجاوز الكمرة
وهذا عذر غير مأبون أبوه سارق البقرة⁽³³⁾

ونلاحظ في هذه الأبيات بساطة الألفاظ وسلاسة التعبير ، وأسلوب السخرية والتهمك على المهجو ، حيث بدا الشاعر وكأنه يصور لنا مشهداً تمثلياً ساخراً ، ويرسم صورة كاركاتورية للمهجو ، فوصف رائحته بالقذارة ، ثم عطف ذلك بالحديث عن دبر المهجو للتناسق بين القذارة والدبر ، وكل ذلك ليقدّم لنا صورة ساخرة وتهكمية عن ذلك المهجو .

ومن شعره الذي يصور فيه مشاهد المدينة والحضارة ، قصيدته الحميمة التي يصف فيها قصر الدمشق ، ومنها قوله :

كل قصر بعد الدمشق يذم فيه طاب الجنى وفاح المشم
منظر رائق وماء نغير وثرى عطر وقصر أشم
بث فيه والليل والفجر عندي عنبر أشهب ومسك أحم⁽³⁴⁾

فأنت ترى روعة الوصف والتفنن والإبداع في صوره ، وهو في ذلك يستمد ألفاظه في وصف القصر من جاليات الطبيعة الساحرة ، ومن ثم يختار ألفاظاً رقيقة ناعمة صافية لتشبيهاته واستعاراته ومدلولات معانيه ، من مثل : (رائق ، نغير ، عطر ، أشم ، عنبر ، مسك)، وهذا كله يدل على حسن اختيار الشاعر لألفاظه وصوره من ناحية ، ومدى تأثره بالبيئة وطبيعتها من ناحية أخرى.

ومما تقدم ، يتضح لنا أن شعر ابن عمار الأندلسي الذي كان يسير في الاتجاه التجديدي (المحدث) ، يمتاز بعدد من الخصائص والسمات الفنية والموضوعية ، ومن أبرزها : أن معظم أشعار هذا الاتجاه جاءت على شكل مقطعات شعرية قصيرة وليست قصائد طويلة ، وهي تصور مشهداً أو موقفاً معيناً حسب رؤية الشاعر له ، كما أن البحور والأوزان الشعرية المستعملة في هذا الاتجاه هي في الغالب بحور خفيفة وسريعة تتلاءم مع روح الشعر الحديث الذي تطغى عليه روح الدعابة والمرح ، وهذا يدل

على حبّ الأندلسيين للتجديد والحداثة ؛ لأنها تعبر عن واقع حياتهم الحضارية المفتحة ، في حين أنّ الاتجاه الشعري الكلاسيكي القديم يمثل حياة البداوة والصحراء التي لم يعرفها الأندلسيون في بيئتهم المدنية المتحضرة ، لذلك كان ميلهم للاتجاه التجديدي المحدث في الشعر والابتعاد عن الاتجاه القديم الذي صار مجرد قوالب فنية جاهزة بعيدة عن واقع حياتهم وطبيعة بيئتهم⁽³⁵⁾.

المبحث الثالث: الاتجاه المحافظ الجديد

ونقصد به ذلك الاتجاه الفني في الشعر الذي ظهر في المشرق كدّة فعل على الاتجاه التجديدي (المحدث) في الشعر ، والذي خرج بالشعر العربي وأبعده عن كثير من تقاليده الفنية والأدبية ، فكان ظهور الاتجاه المحافظ الجديد ؛ ليعيد الشعر العربي إلى طبيعته العربية ، ومن هنا جاء هذا الاتجاه محافظاً من جانب ، ومتجسداً من جانب آخر ، فهو محافظ في منهج القصيدة ولغتها وموسيقاها ، ثمّ في روحها وأخلاقياتها إلى حدّ كبير ، وهو مجدّد في معاني الشعر وصوره ، ثمّ في أسلوبه وجماليته نصّه إلى درجة كبيرة⁽³⁶⁾. أمّا متى ظهر هذا الاتجاه الفني ؟ وكيف شاع واشتهر ؟ فكان ظهوره في المشرق على يد الشاعر المشرقي الكبير في العصر العباسي أبو تمام الطائي (ت 231هـ) ، وتبعه شعراء آخرون كالبحرّي وغيره من الشعراء ممن عاصر الشعراء أو جاء بعدهم ، حتى بلغ هذا الاتجاه ذروته في النضج والصنعة والجودة على يد الشاعر الكبير أبي الطيّب المتنبي ، ومعه بلغ الاتجاه المحافظ الجديد القمة والذروة⁽³⁷⁾. ويمكن القول بأنّ الشعر في هذا المجال يمثل جانباً من الثورة على الإغراق في الحضارة ، فإذا لم نعتبره ثورة واقعية صريحة يمكننا عدّه تكاملاً لا بدّ منه من أجل إيجاد التعادل بين متطرفين⁽³⁸⁾. وهكذا يستوجب على الشاعر بمقدار ما تعين أن يستمدّ من موروث وتقاليد الماضي ، يتعين عليه كذلك أن يستخدم اللغة استخداماً مغايراً⁽³⁹⁾. لأنّه كما يقال: ما من جيل يمكن أن يشعر ويحسّ ويتذوق بنفس الطريقة التي أحسّ وشعر به جيل من سبقوه⁽⁴⁰⁾. ويبيّن لنا الدكتور محسن إطميش حيناً يقول: إنّ الشاعر المقتدر المتكهن إنّما يتمتّل ويقتفي الموروث ويعيد خلقه خلقاً جديداً يحمل من صفاته وخصائصه الفردية وطابع عصره ، لا يبدو تقليداً كاملاً متميلاً إلى عصور ماضية ، ولا يبدو شكلاً منفصلاً متحرراً تماماً⁽⁴¹⁾.

وإذا قمنا بمعرفة جوانب هذا الاتجاه من حيث المنهج ، والموسيقى الشعرية ، وروح الشعر وأخلاقياته ، ومعاني الشعر وصوره ، وطريقة الأسلوب وجماليته ، فإننا سنرى أنّها تسير وتحذو حذو طريقة المشرق ، ولكن لا نعتبرها تقليداً كاملاً شاملاً . وهذا ما أوضحه د. أحمد الهيكّل حيناً قال : أمّا جانب المعاني والصور ، وما ينبغي أن تكون عليه من طرافة وغرابة وجدة ، قد تستدعي توليداً أو تنقيفاً أو تقطيراً ، بل قد تستدعي المنطقة والتحليل ، والاحتجاج ، والاستدلال ، ثمّ جانب الأسلوب ، وما ينبغي أن يحمل به من ألوان البديع وصنوف المحسنات ، وخاصة الجناس ، والطباق ، والمقابلة ، والتكرار ، ثمّ منهجية القصيدة وما يغلب أن يتبع فيه من بقاء الأطلال ، أو الغزل التمهيدي ، ثمّ الانتقال إلى الغرض الاساسي ، ثمّ الانتهاء بخاتمة كثيراً ما يكون فحراً بالشعر ، وأخيراً جانب اللغة والموسيقى ، وما ينبغي أن يراعي فيه من المتانة والجزالة والفخامة والجلال⁽⁴²⁾.

ويبدو أنّ هناك أسباباً أدّت إلى انتشار هذا الاتجاه في اشبيلية منها : انتشار دواوين وأعلام من المشاركة في إشبيلية ، مثل: أبي تمام الطائي ، والبحرّي ، والمتنبي ، وأبي العلاء المعري ، ومنها نمو الصراع والتفاخر والتباهي بين العرب المسلمين والأعاجم النصارى وتصادمه ، فكان الموقف السياسي والديني يدعو إلى التمسك في بعض الأحيان وبعض المواقف بالتقاليد العربية القديمة الموروثة ، وكذلك الصراع والنزاع بين ملوك الطوائف أنفسهم ، وما جرى بينهم من معارك وحروب طاحنة أدّت إلى التفاخر والتباهي ، فلم تكن هناك أنسب من هذه القوائد للفت الأنظار إليهم ، من خلال الألفاظ الجزلة ، وقوافيها القوية ، وموسيقاها المؤثرة ، لذلك كان أغلب شعر المدح ، والحماسة ، ووصف المعارك من هذه الأشعار المتسمة بصفات وميزات هذا الاتجاه الجديد⁽⁴³⁾. ومما لا شكّ فيه أنّ شاعرنا ابن عمار قد سلك هذا المسلك ، مقتنياً أثر شعراء المشرق الفحول ؛ ذلك أنّ ابن عمار الأندلسي من أشبيلية والشاعر ابن بيته ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإنّ الشاعر قد مرّت به جميع الظروف والأسباب التي أدّت إلى انتشار هذا الاتجاه الشعري في الأندلس ، لذا سنحاول عرض طائفة من نصوصه الشعرية التي تجسّد هذا الاتجاه الفني في شعره ، لبيان مدى تأثره بالاتجاه المحافظ الجديد ، ومن ذلك قوله مستعظماً للمعتد بن العباد :

سجايك إن عافيت أئدى وأسمخ وعذرك إن عاقبت أجلي وأوضخ
وإن كنت بين الخطئين مزينة فأنت إلى الأدنى من الله أجنح
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع عداقي وإن أثنوا عليّ وأفصحوا
وماذا عسى الأعداء أن يزيّدوا سوى أنّ ذنبي واضح متصح⁽⁴⁴⁾

فأنت ترى كيف بدأ الشاعر بمقدمة رصينة قوية متينة ، مليئة بمعاني الشفقة والرحمة والاعتذار ، مشحونة بسحب العطف والندم والحسرة على ما اقترفه من الأخطاء ، وتلاحظ كيف يوازن بين المعادلتين في مطلع القصيدة ، حين وازن بين عفو ممدوحه وساحته ، وشدة عقوبته وصلابته ، فهو في كلا الحالتين محقّ في أمره ، ثمّ بعدها يسترسل بعبارات الشفقة والانكسار بين يدي الملك ، ليصل في نهاية المطاف إلى كسب ودّه وعفوه . ونجد تمثّل الاتجاه المحافظ الجديد كثيراً في اعتذاريات ابن عمار الأندلسي للمعتد بن عباد ، ومن ذلك قصيدته الميمية ، ومما جاء فيها :

عليّ وآلا ما بكاء الغائم وفيّ وآلا ما نبأ الحائم
وعتي آثار الرعد صرخة طالب لثأر وهزّ البرق صفحة صارم

وما لبست زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في مآثم
وهل شقت هوج الرياح جيوبها لغيري أو حنت حنين الروائم
حدو بي إن لم تهدأوا كل ساحج لريح الصبا في إثره أنف راغم (45)

فالشاعر استخدم ألفاظ الطبيعة ، وشخص الجمادات وأبكاها ، وحرك مشاعر الطيور وفقدانها للأحبة ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حينما توجه إلى الرعد ليطلب له صرخة المطالبة ، وللبرق ليتلمع ويمز السيف من الموقف المهول ، ثم صور مشهد الحزن في السماء حينما انطلقت أنوار النجوم المتأللة ، وكأنها قد لبست الحداد لهذا المصاب ، بل أنها أعدت مأتماً لمصابه الجلل ، ثم لم يكتفي بهذا المشهد فمال إلى مشاركة الرياح وشقها الصدور ليفخم الصورة ، وبعدها رجع إلى الموضوع المهم وهو الحنين إلى الموقف الأول المتجسد في الصبغة الصافية التي كانت بين الشاعر والمملك . فترى الشاعر سلك مسلك جديداً في الأبيات ، واختار الفاظاً رصينة ، ووازن في بعض الأبيات ، في قوله: "عليّ وإلا ما بكاء الغائم ، وفيّ وإلا ما نياح الحمايم" ، ونراه يستعمل البحور الشعرية الطويلة ، مثل البحر الطويل ، فأنت ترى أن عبارات الأبيات متأسكة ، ومتراصة فيما بينها . فهذا المشهد التصويري المحافظ الجديد ، يدل على عمق الفكرة ، وتواصلها واحتوائها على عناصر الأصالة والمعاصرة معاً .

ومن شعر ابن عمار الأندلسي في الاتجاه المحافظ الجديد أيضاً ، فخره في تحريض أهل بلنسية على ابن عبد العزيز ، ومن ذلك قوله :

كيف التفك بالخدبة من يدي رجل الحقيقة من بني عمار
رجل تطعمه الزمان فجاءه طرفين في الاحلاء والامرار
سلس القياد إلى الجميل فإن يهج فدع العنان لهية التيار (46)

ومما امتاز به شعر محمد ابن عمار الأندلسي المحافظ الجديد ، أن القصيدة الواحدة فيه تتضمن عدة أغراض وموضوعات شعرية ، كما في القصيدة الأولى (الميمية) التي اشتملت على موضوعات الشكوى والمدح والاستعطاف ، ونحو ما وجدناه في القصيدة الثانية (الرائية) التي ضمها الشاعر غرضي الهجاء لابن عبد العزيز والفخر بنفسه . ومن خصائص شعر هذا الاتجاه - أيضاً - عناية الشاعر بمطالع القصائد ، ولا سيما ظاهرة (التصريح) التي تشيع كثيراً في شعر ابن عمار الأندلسي ، ومن ذلك على سبيل الذكر لا الحصر ، قصيدته الدالية في مدح المعتضد ، ومطلعها : دح

ألا للمعالي ما تعيد وما تبدي وفي الله ما تخفيه عتاً وما تبدي (47)

وفي هذا المطلع نجد أن الشاعر قد وزن بين الألفاظ ، وبدا ببداية متفائلة ، وهي كلمة "المعالي" التي تدل على المكانة الرفيعة ، ثم أتبعها في عجز البيت بلفظ الجلالة "الله" لتدل على ربط بداية الشطر الأول ببداية الشطر الثاني ، وهو مطلع جميل متماسك متين .

ومن يتتبع شعر ابن عمار الأندلسي يجد أن (التصريح) يشكل ظاهرة فنية في شعره ؛ لكثرة عناية الشاعر به واستعماله في معظم قصائده ، ولعل ابن عمار كان متأثراً في ذلك ببعض الشعراء الذين اشتهروا بكثرة استعمال التصريح في شعرهم ، ومما يكن من أمر ، فإن التصريح وظيفة فنية ودلالية في القصيدة ، ذلك أن التصريح يخلق جواً نغمياً وإيقاعياً يضفي على البيت الشعري حيوية ورواقاً يتفاعل معها القارئ والمتلقي ، وكأنه ينصت إلى نغمة موسيقية يطرب لها وينتشي بها ، ومن ذلك على سبيل المثال قول ابن عمار يمدح المعتضد :

أشاقك برق أم جفاك حبيب فليك فضااض الرداء رحيب (48)

وقوله يمدح المعتد بن عباد وقد احتجب في يوم غائم :

تجهم وجه الأفق واعتلت النفس بأن لم تلج للعين أنت ولا الشمس (49)

ومن ذلك أيضاً قول ابن عمار متغزلاً :

نفسى وأن عذبها تهواك ويهزها طرب إلى لقياك (50)

فمطلع الأبيات السابقة كلها تبدأ بالتصريح ، فالبيت الأول بين (حبيب ورحيب) ، والثاني بين (النفس والشمس) ، والثالث بين (تهواك ولقياك) ، وهذا يدل على مدى اهتمام الشاعر بهذا الفن الجميل ، وعلى تمسك الاتجاه المحافظ الجديد بهذه الظاهرة الفنية ، التي تحمل قيم الموروث الشعري ، وليس للمحدثين الاستغناء عنها .

كما اشتهر شعر المحافظ الجديد بعنانيته بفنون البديع كالجناس والطباق وغيرها ، ومن شعر ابن عمار الأندلسي الذي حفل بهذه الفنون البديعية قوله في مدح المعتمد

بن عباد :

يغار من لثم المباسم في ثرى مواكبه أمثال ثلم المناسم

له الخير ما أعطى إلى كل صارم يميناً وما أعطى بكل ضبارم

إذا جرّ أذيال الجيوش إلى العدى أطاعته أو جرّت ذيول الهزائم (51)

فنلاحظ الجناس الناقص بين الكلمات (لثم و ثلم) وبين (المباسم و المناسم) وبين (صارم و ضبارم) ،

ومن ذلك أيضاً قوله يستعطف الرشيد بن المعتمد :

مشفق يستجيب له من قريب وأنا استغيثه من بعيد

لو أطلت علي رحمة عيني
ه انجلت شدتي وذاب حديدي (52)
إد عمد الشاعر إلى استعمال فن الطباقي ، ويظهر ذلك بين (قريب - بعيد) ، ومن ذلك أيضاً قوله في هجاء ابن عبد العزيز :
جاء الوزير بها يكشف ذيلها
عن سواة سواة وعار عار
نكت اليمين وحاد عن شني الهدى
وقضى على الإقبال والإدبار (53)
فهناك جناس ناقص بين (سواة ، سواة) ، وجناس تام بين (عار ، عار) ، أما الطباقي فكان بين الاسمين (الاقبال ، الادبار).
لذلك نرى أن الوسيلة التعبيرية المعبرة لدى الأندلسيين والمشاركة بكل مضامينها من مظاهر القدرة أو العجز ، والاتحاد في طريقة التعبير يوحد أو يقرب الشكل ، كما أن الاتحاد في مواد الحضارة يوحد الموضوع الشعري (54).
ونستنتج مما سبق عرضه وتحليله من النصوص الشعرية ، أن الشاعر ابن عمار الأندلسي كان ملتزماً بقواعد الاتجاه المحافظ الجديد وشروطه الفنية ، سواء من حيث الألفاظ ، أو الفنون البديعية ، أو المطالع الموجودة في المقدمات ، وحتى البحور الشعرية .

الخاتمة

بعد هذه الجولة في مظان الكتب والمصادر التي تناولت الاتجاهات الفنية في شعر ابن عمار الأندلسي ، يصل البحث إلى نهاية المطاف ، وهذه أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث:

- 1- يعد محمد بن عمار الأندلسي شاعراً متعدد الاتجاهات؛ لكونه واكب الحركات الثلاثة، وتأثر بها، وسلك طرقها، وقاد خطواتها.
- 2- تأثر بداية بالاتجاه القديم الكلاسيكي وسار على دربه، وانتهل من منهلهم ، لكونه يرى فيهم المثل الأعلى ، وتراثاً أصيلاً عريقاً.
- 3- أما أسلوبه المحافظ الذي تناوله في الموضوعات التقليدية ، فله تبريره وذلك أن العرب كانوا ينتقلون إلى أي إقليم جديد ، وفي مخيلاتهم عالم مثالي ، هو ذلك العالم الذي عاشه آباؤهم الأقدمون ، حيث الصحراء والنوق ، والبان والكتبان ، والجاذر والآرام ، إلى آخر هذه الخطوط والألوان التي تؤلف لوحة البادية، عالم العرب المثالي الأسطوري.
- 4- ظهور التحرر الفردي في بيئة المجتمع الأصيلي ، ولأسباب سياسية ، ومناظر خلافة للطبيعة ، عوامل أساسية للتأثر بالاتجاه الجديد ، الذي غزا المجتمع الأندلسي ، بل كانت تربته صالحة لتقبل هذه الفكرة ، بعد الانتعاش والتطور الحاصل.
- 5- ظهر القديم الجديد بقوة ؛ كثورة على الأعراف والتقاليد الجديدة ؛ وليوازن بين الجديد الفارق في الملامح والقديم المحافظ.
- 6- سلك في الاتجاه الأول البحور الرصينة العميقة ، والكلمات الكلاسيكية القديمة ؛ ليبرهن للقارئ والمجتمع أنه يستطيع السير على منوال الشعراء القدامى ويواكبهم. كما أنه استخدم البحور السريعة والكلمات الساخرة والألفاظ السهلة في الاتجاه الثاني الجديد ؛ ليراعي الواقع ونفسية المجتمع.
- 7- أما الأغراض والموضوعات التي تناولها هذا الاتجاه المحدث فلم تكن متداولة ومطروقة عند الأندلسيين سابقاً ، كالخمرات ، والمجونيات ، والغزل الشاذ، والزهديات ، ووصف الطبيعة.
- 8- تعمق في الأساليب والألفاظ ، واختار مواضيعاً قوية ليبرهن على أصالة المجتمع الأندلسي وتمكنه وعبقريته.
- 9- اهتم الاتجاه الثالث ببعض الفنون الموسيقية وخاصة في مطالع الأبيات كالنصريع ، والموازنة بين الألفاظ والجمل ، واستخدام الجناس والطباق للتناغم الموسيقي.

المصادر والمراجع

- 1- أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعث - حياتهم - آثارهم - نقد آثارهم ، بطرس البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت ، 1937م.
- 2- الإحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب ، تح: د. علي الطويل يوسف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1971.
- 3- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكل ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1967م.
- 4- تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - ، د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، ط2 ، 1969م .
- 5- تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمراطين - ، د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ط2 ، 1969.
- 6- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، د. نجيب محمد البيهقي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط3 ، 1378هـ - 1967م.
- 7- ديوان النابغة الذبياني ، تح: كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، 1963.
- 8- دبر الملاك - دراسة نقدية لظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر - ، د. محسن الطمش ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط2 ، 1986م.
- 9- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، علي بن بسام الششتري ، (542هـ) ، تح: د. إحسان عباس ، دار الثقافة الثقافية ، بيروت - لبنان ، 1398هـ - 1978م.
- 10- سلسلة محاضرات في الأدب الأندلسي وتاريخها ، ليفي برونفسال ، مطبعة الأميرية بالقاهرة ، 1951م .
- 11- الشعر في ظل بني عباد ، محمد مجيد السعيد ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ط1 ، 1392هـ - 1972م.
- 12- الشعر كيف نفهمه وتندوقه ، إليزابيث دور ، تح: د. محمد إبراهيم الشوش ، منشورات مكتبة منمنمة ، بيروت ، 1961م.
- 13- لغة الشعر بين جيلين ، د. إبراهيم السامرائي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1980م.
- 14- لغة الشعر الحديث في العراق ، عدنان حسين العوادي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1405هـ - 1985م.
- 15- محمد بن عمار الأندلسي - دراسة أدبية تاريخية - ، د. صلاح خالص ، مطبعة الهدى ، بغداد ، 1957م.

الهوامش

- (1) ينظر: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، نجيب محمد البهيبي : 180.
- (2) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة ، أحمد هيكل : 81.
- (3) ينظر: سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلسي وتاريخها ، ليفي بروفنسال : 36.
- (4) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : 84.
- (5) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنيتري ، ق 1 ، م : 12.
- (6) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : 85.
- (7) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 210.
- (8) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 212.
- (9) المصدر نفسه : 212.
- (10) ينظر: أدباء العرب في الأندلس وعصر الاتبعات - حياتهم - آثارهم - نقد آثارهم ، بطرس البستاني : 30.
- (11) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 235.
- (12) لغة الشعر بين جيلين ، إبراهيم السامرائي : 26.
- (13) : ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 240.
- (14) المصدر نفسه : 240.
- (15) المصدر نفسه : 277.
- (16) لغة الشعر بين جيلين : 58.
- (17) ديوان النابعة الذبياني ، بطرس البستاني : 34.
- (18) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 282.
- (19) المصدر نفسه : 219.
- (20) الإحاطة في اخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب : 194.
- (21) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : 127.
- (22) المصدر نفسه : 131 - 132.
- (23) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، إحسان عباس : 48.
- (24) ينظر: الشعر في ظل بني عباد ، محمد مجيد التميمي ، 210.
- (25) ينظر: المصدر نفسه : 210-211.
- (26) ينظر: المصدر نفسه : 219.
- (27) ينظر: المصدر نفسه : 218.
- (28) ينظر: المصدر نفسه : 219.
- (29) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 229.
- (30) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 243.
- (31) ينظر: الشعر في ظل بني عباد : 219.
- (32) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 254.
- (33) المصدر نفسه : 250.
- (34) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 255 .
- (35) ينظر : تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة : 128.
- (36) ينظر : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : 194-195.
- (37) ينظر: المصدر نفسه : 196.
- (38) ينظر : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والملوك : 109.
- (39) ينظر : لغة الشعر الحديث في العراق ، : 21.
- (40) ينظر: الشعر كيف نفهمه وتذوقه ، الزايد دور : 84.
- (41) ينظر: دير الملاك : 187.
- (42) ينظر : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : 200.
- (43) ينظر : الشعر في ظل بني عباد : 222-223.
- (44) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 319.
- (45) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 209.
- (46) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 288-289.
- (47) المصدر نفسه : 195.
- (48) المصدر نفسه : 205.

- (49) المصدر نفسه : 231.
- (50) ديوان محمد بن عمار الأندلسي : 242
- (51) المصدر نفسه : 215.
- (52) المصدر نفسه : 312.
- (53) المصدر نفسه : 288.
- (54) ينظر : تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة : 128.